من هنا ومن هناك

بوشكين أمير شعراء روسيا

تستعد روسيا السوفيتية استعداداً عظيما للاحتفال بمرور مائة سنة على وفاة شاعرها الأكبر بوشكين الذي مات متأثراً بجروح بالغة بعد مبارزة جنونية مع هيكرين دانت أحد ضباط الحرس القيصري الذي كان يغازل امرأة بوشكين ، والذي قيل إنه استطاع أن يحظى بها بعد مجازفات غرامية سافلة انتهت بمقتل شاعر روسيا الكبير في ٢٧ فبراير سنة ١٨٣٧

ولو عاش بوشكين الى اليوم لأبى أن تحتفل به روسيا هذا الاحتفال الذي يؤلمه ويكبر عليه من رجال مستبدين غاشمين داسوا تعاليمه ، ولم يبالوا أن يجعلوا روسيا جحيما لا يطاق من العسف والجبروت ، والفاقة والعوز ، والكبت والتنكيل . وهي أمور وقف بوشكين حياته على محاربتها في عهد القيصر ، وانضم بسببها الى جماعة الديسمبريين يناضل الظلم بيده ولسانه وقلبه ، ولم يبال أن ينفى الى الجنوب ، وأن يحرم ملذات بطرسبرج وأنوارها التي كانت في ذلك الوقت زينة الحياة الدنيا

ولد بوشكين في ٢٦ مايو سنة ١٧٩٩ من أب روسي ، وأم خلاسية يجري في عروقها دم الزنوج الأفريقيين ، لأنها حفيدة (هينبال !) العظيم ، أحب خدم البلاط الى بطرس الأكبر ، والذي كان يلقبه عاهل روسيا (جوهرة بلاطي !) من سبيل الدعابة ، لأنه كان عبداً أسود امتاز بشجاعته النادرة وإخلاصه المتين لصاحب التاج

وكان أبوه روسياً مثقفاً يقتني مكتبةً حافلة تزخر بأجود الكتب الفرنسية كقصص فولتير ومؤلفات روسو وغيرها ، فكانت النبع الفياض الذي ارتوى منه بوشكين وشفى نفسه الصادية ، وساعدته ذاكرته القوية على استظهار ما في كتبها من درر وغرر ومُلَح وطُرف ، وهو لم يعد بعد طور الصبي . ولم يظهر بوشكين عبقرية ما في صغره ؛ وكان يكره اللغة الروسية من صميمه ، ولم يكن يعلم أنه سيصير عما قريب إمامها المجلي ، وفارسها المغوار ، وشاعرها الذي لا يدانيه شاعر

وكان أبوه يضيق بضعف ولده في الروسية ، فلما ضبطه مرة مكباً على فولتير يكاد يلتهمه ، لم يسمه إلا أن يضربه ضرباً مبرحا وحرّم عليه دخول مكتبته حتى يتقن اللغة الروسية . . . « وعندها يا بني يمكن أن يثمر في قلبك ، وعلى لسانك ، هذا الأدب الفرنسي الجميل ! . . . » وقد صدق أبوه ! !

وفي سنة ١٨١٢ التحق بصالة المحاضرات Lyceum في قرية زارسكوسيلو ، إحدى ضواحي موسكو ، وهناك تعرف إلى الشاعر (درزهافين) فنفخ فيه من روحه وشجعه على قرض الشعر ، وكان يستملح منه هذه القصص الممتعة التي كان ينظمها وينشدها أخواته الصغيرات . وحدث أن زار الشاعر الروسي الكبير (زهيكوفسكي) ضاحية زارسكو ، وسمع بوشكين فأعجب به وتنبأ له عن مستقبل باهر . وقد تأيدت تلك النبوءة عند ما نظم بوشكين قصيدته الطويلة (رسلان ولدميلا) سنة ١٨٢٠ فأرسل إليه الشاعر الروسي صورته وعليها هذه العبارة (إلى التلميذ : من أستاذه المغلوب على أمره !)

وقد اشتملت قصيدة رسلان على طائفة كبيرة من الفوكلور الروسي الذي كان يترفع عنه الشعر في ذلك الوقت ، وبرغم ذلك فقد كان للقصيدة رنة عظيمة في روسيا ولهج بها كل لسان ؛ وكان الشاعر باتيوشكوف يصبو إلى إمارة الشعر الروسي ، فلما صدرت قصيدة بوشكين حقد على الشاعر الشاب « الذي سبق الشعراء إلى ما كانوا يصبون إليه ! »

ورحل بوشكين إلى العاصمة الصاخبة بعد حصوله على شهادة الليسيوم ، وكان يتمنى لو التحق بالمدرسة الحربية ، بيد أنه ألحق بوظيفة في السلك السياسي ، واستطاع أن يجوب آفاق القوقاز ، وهو في ذلك العهد مسبح خيال الشعراء ونبع إلهامهم ؛ ثم

تجول فى ربوع القرم ، وقضى حقبة طويلة درس فيها الايطالية والانجليزية ، واشتد ولعه بشاعر الانجليز بيرون فكان يستظهر قصائده ، وبلغ من إعجابه به أن قلد بقصيدته (أسير القوقاز) قصيدة بيرون (تشيلد هارولد) . وفى هذه القصيدة يبدع بوشكين فى الكلام عن الحب ووصف الجمال القوقازى والخرائد القوقازيات ويرتفع ببطل القصيدة إلى ذروة الظمر

وشعر بوشكين فى هذه الفترة من عمره متأثر بالأدب العربى إلى حد بعيد ؛ وأثر أبى نواس والمدرسة العباسية فيه شديد الوضوح ، فهو يصف بيوت الحانات وما فيها من ألوان الترف وجمال السراري والولدان . ومن يقرأ ما جاء فى الأغانى ونهاية الأرب عن حب الأعراب ثم يقرأ قصيدة (النجر Oypoies) لبوشكين يلمس أثر الثقافة العربية فى هذا الشاعر لمساً تاما . فهذا الفتى (أليكو) الذى يسأم صخب المدن ويفر إلى الريف فيحب الفتاة (زمفيرا) ويتزوجها ، ثم تمله الفتاة وتقلوه وتعلق فتى وسيم الخلق فتتصل به وتساقيه كؤوس الغرام ويفاجئهما أليكو فى حالة مريبة فيقتلهما جميعا ، ويثير عليه غضب سيده وهو والد الفتاة ، فيطرده من خيامه ليهيم على وجهه فى الأرض ، ويعود السيد ليرى زوجته بين يدى عاشق أثيم فتسود الدنيا فى عينيه ويترك العاشقين وشأنهما وينطلق على وجهه فى الأرض حيران ... كأنما انتقم منه القضاء للفتى أليكو

وتأثر بوشكين بشكسبير أيضاً ، ويبدو ذلك الأثر على أتمه فى قصيدته (بوريس جودينوف) التى تصور رجلاً آثاقياً متشرداً يصل إلى عرش أمة فى غفلة الزمن ، وقد عرض فيها بديمتري الذى استطاع أن يحكم روسيا ولم يكن من قبل شيئاً مذكورا

ومن أحسن قصائده (أونجين) التى بدأ بنظمها سنة ١٨٢٣ وأتمها سنة ١٨٣١ وسنعود اليها فى عدد تال

مسز جراندى

اشتهر القرن التاسع عشر فى انجلترا بأنه قرن الانتقال المفاجئ فى حياة أمة عظيمة عتيقة محافظة — ففيه ظهر داروين الذى قلب البيولوجية رأساً على عقب ؛ وفيه تبدل الاجتماع الانجليزى فأصبح اجتماعاً صناعيا يرتكز على أساس من الآلة البخارية بعد أن كان اجتماعاً زراعياً أو صناعياً يرتكز على أساس من آلة تدار باليد . وفيه خطا الطب خطوة واسعة من الشعوذة إلى التشريح العلمى وبحث خصائص الميكروب

ولكن القرن التاسع عشر لم يستطع أن يخطو بالأسرة الانجليزية خطوة واحدة إلى الأمام ، بل إنه زاد الطين بلة فأغرق انجلترا فى بحر من الذهب فأترف الانجليز إترافا زادهم جموداً وقوى من سلطان مسز جراندى عليهم جميعاً

ومسز جراندى هذه هى هذا الشبح الخرافى الذى يكنى به فى انجلترا إلى اليوم عن سلطان التقاليد العتيقة البالية التى تعلى للأب فى منزله سلطة الدكتاتور ، وللأم سلطان القديسة ، تأمر وتنهى وترفع فى وجوه أبنائها عصا القرون الوسطى فتفل بها من حريتهم وتحد من استقلالهم إن فرض أن لهم استقلالا أو حرية . وكان صوت مسز جراندى يدوى فى كل بيت انجليزى فيقول : هذا واجب وذاك لا يصح ، وينبغى أن تدنى الفتاة عليها من جلاليبها ، وألا تفتح النافذة ، وألا تمد عينيها إلى أحد إذا سارت فى الطريق ، وألا تختار لنفسها بل أبوها هو الذى يختار لها

وكان لمسز جراندى سلطان مخيف على الأدباء ، وكانوا جميعاً يخشون بأسها ، ولذا كانت أفكارهم سجينة فى زخارف من الكلام الأجوف الموشى الذى يعجب اللغويين ويهزأ به الأدباء المصلحون . وما كولى دليل على ذلك ، فأسلوبه الرقص المطرب لا يكاد يدانيه أسلوب آخر فى موسيقاه ، ولكنه بأفكاره يعيش كما تعيش العناكب فى الأركان والزوايا ، وكما تسعى الخفافيش فى ظلام الليل . وجون رسكن كذلك ، وهو رجل أنيق العبارة رشيق الأسلوب ، ومع ذلك أراد أن يضحى تقدم انجلترا ورقيها الآلى ما دام هذا الرقى فى رأيه ينافى الفن الصحيح . ولقد ثار على مسز جراندى أديبان عظيمان هما لورد بيرون وبرسى شلى فكان أولهما يجاهر بآرائه الكفرية ، ويغيظها فيشرب الخمر فى جمجمة ميت ، ويترخص فى الحب وينظم دون جوان . وكان الثانى يحتقرها فى عظمة ووقار وينظم مأساة سنى ويفلسف فى الحب ، ولكن مسز جراندى هى الأخرى لم تأبه بهما ، بل هى قد لفظتهما من انجلترا إلى اليونان وإيطاليا ولذلك لم يشعر بهما أحد إلا بعد أن مرضت هذه السيدة المحتشمة وأوشكت أن تموت

والذى يهمنا من هذه الكلمة عن مسز جراندى أن الشريعة الاسلامية أكبر أعدائها ، ومع ذلك فسلطان مسز جراندى فى مصر أقوى منه بكثير فى انجلترا ، فهل يتأذن الله أن تموت ؟ !

د . خ